أيها
الجاهلون

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ

قُلْ أَغيرَ اللهِ تأمرونّي أَعبدُ

أيها الجاهلون

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، العلي الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن الله الخالق الرازق، الذي أنزل الكتاب على النبي محمد ﷺ، وأرسله للناس كافة، هو وحده الإله الحق، الذي يستحق أن يعبد، ويُعظّم ويطاع، وكل من سواه فهو مخلوق مربوب عبد مقهور لله تعالى.

وكل من في السموات ومن في الأرض من مَلَك أو إنس أو جان، أو أي مخلوق كان، فإنما هو عبد لله تعالى، شاء أم أبى.

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

فنبيّ الله عيسى وأُمّه عليهما السلام عبدان لله تعالى، وجبريل ومكائيل وإسرافيل عليهم السلام عبيد لله تعالى، وغيرهم من سلاطين وأباطرة، وملوك وأكاسرة، وقياصرة

وجبابرة، وبغاة ونماردة، وعتاة وفراعنة، الكل عبيد لله عز وجل، وهو ربهم وخالقهم، وخالق كل شيء.

وهذا كتاب يُبَيّن أن كل مَنْ عَبد غير الله فهو جاهل، بل أجهل الجاهلين، وأن كل مَنْ عصى اللهَ فهو جاهل.

وبالتالي يُبَيّن أن هؤلاء إنما أُتوا في عبادة غير الله وفي معصيته، من قِبَل جهلهم بعظمة الله تعالى، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وإلّا لما عصَوْه.

فإن من عرف الله عز وجل وعرف عظمته أيقن ولا بد أنه وحده المستحق للعبادة والطاعة.

ومن عرف أسماءه وصفاته وكماله وجلاله وجماله، وجد نفسه مضطرًّا للإذعان والذل له سبحانه، واللهج بالثناء عليه والمدح له ليل العبد ونهاره، فكيف مع هذا إذا كان محتاجًا إليه في كل حركة وسَكْنة، ليحفظه من الآفات، ويكلأه من الهلَكات، ويدفع عنه شرور جميع المخلوقات، ويهديه إلى مصالح دنياه، ويرزقه ويطعمه ويسقيه، وإذا مرض يشفيه؟!! عندها لن يتوقف لسانه، ولن يغفل قلبه، عن الشكر له والامتنان، وسيكون ديدنه:

أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

وأُتِيَ فريق منهم ـ من فَرْط جهلهم ـ من قِبَل أنهم لم يستدلوا بربوبية الله وخلقه السموات والأرض على أنه المستحق للعبادة، فهم يؤمنون أنه سبحانه الخالق، ومع هذا عاندوا واستمروا على كبرهم، ولم يذعنوا له سبحانه بالعبادة!

تجهيل الكفرة والمشركين

ولم يكتفوا بهذا بل دعَوْا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة ما يعبدون من دون الله! كما قال الله تعالى له ﷺ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٤-٦٦].

فأي جهل بالله عز وجل، وأي جهل برسوله ﷺ، الذي أرسله الله إليهم وإلى غيرهم ليُعْبَد الله وحده، ويُنْبَذ كلُّ معبود سواه من آلهتهم المفتراه وغيرها، أي جهل أعظم من هذا؟!!!

وقال عز وجل مخاطبًا له ﷺ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

ومثل ذلك قال سبحانه لكليمه وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩].

فهذا هو الدين: إيمان لا كفر، وشريعة لا أهواء، وسنة لا بدعة، وولاء وبراء، واستقامة على أمر الله واتباعه سبيله، وانحياز عن أمر الظالمين وسبيل الجاهلين.

ويشبه ما جاء في آية «الزمر» من التجهيل لأولئك ما جاء من تجهيل كليم الله عليه الصلاة والسلام لطائفة بني إسرائيل المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]!

وفي تجهيل أول الرسل عليه الصلاة والسلام لقومه

قال الله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾ [هود:٢٩].

ومثله تجهيل نبي الله هود عليه الصلاة والسلام لقومه، قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٢-٢٣].

وفي تجهيل نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام لقومه على إتيانهم الفاحشة قال الله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل:٥٥-٥٦].

فانظر ما أجهلهم!! وما أنجسهم!!

أفغير دين الله يبغون؟

والنبي الخاتم ﷺ، وسائر أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، أُمِرُوا أن يعبدوا الله وحده، وأَمَرَهم اللهُ عز وجل أن يأمروا غيرهم بذلك، وهم سادة الموحدين، ومن أكبر المستحيل

أن يأمر أحدُهم بعبادة غير الله تعالى!

قال سبحانه ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

إلى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:٨٣].

إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾؛ أي: منتسبين إلى الرب تعالى، مخلصين له بالعبادة، عالمين بدينه، متمسكين به، معلِّمين الناس له.

اقتراح تنزيل الآيات

ومن الجهلة: مُقْتَرِحُوا تنزيل الآيات من ملائكة وغيرهم، وتعليق إيمانهم على ذلك، إذ أن الآيات بيد الله ينزلها متى شاء، ويأتي بها إذا أراد، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٣٧].

وقال سبحانه في نفس السورة: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٩].

وقال سبحانه بعدها في نفس السورة: ﴿ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١١٨].

ثم يقال: ألم يكف هؤلاء الجهلة آيةً كتابُ الله تعالى وكلامُه الذي أنزله على رسوله ﷺ، والذي لم يطرق العالم ولم تعرف الأرض آية أعظم منه!!! مع تحديهم على الإتيان بسورة من مثله، وعجزهم عن ذلك!! قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١].

الرب الخالق
هو المستحق للعبادة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١].

هذا أول أمر في كتاب الله عز وجل، وهو موجه إلى الناس كافة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾، الذي يربيكم بالنعم، ويدفع عنكم النِّقَم، والذي خلقكم، فالرب الخالق هو الذي يجب على المخلوق عبادته دون غيره، فأي عقل يسوِّغ أن يعبد المربوب المخلوق مخلوقًا مثله ويترك ربَّه وخالقَه؟!!

وقال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ * لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠٣].

فانظر بالله ما اجتمع في هذه الآية: بديع السموات

والأرض (أي: مبدعها وخالقها على غير مثال سبق). وخَلَقَ كل شيء. ثم: خالق كل شيء فاعبدوه!! فالخالق هو المستحق للعبادة دون غيره.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٦].

ولئن سألتهم
من خلق السموات والأرض

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۞ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۞ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ {العنكبوت:٦١-٦٣}.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [لقمان:٢٥].

ثم بين الله عز وجل في الآيات التي بعدها عظمته(١) وكبير شأنه، وقدرته ـ التي تبهر العقول ـ على خلق الناس وبعثهم.

وفي هذا تأكيد لما قدمنا من أن معرفة ذلك والإيمان به يوجب الانقياد لله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾؛ أي: فكيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى وهم يعلمون أنه هو الذي خلقهم؟!!

---

(١) كما سيأتي (صفحة ٤٥).

خَلْق السموات والأرض
أكبر من خلق الناس

قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

يعني: أن الله الذي خلق السموات والأرض، وأنتم تقرون بذلك، قادر من باب أولى على بعثكم بعد موتكم، وهو أهون عليه، لأن خَلْق السموات والأرض واضح لكل ناظر أنه أكبر وأعظم من خلق الناس، ولكن أكثر الناس جاهلون معرضون.

قال ابن عاشور: «فالمعنى: أن حجة إمكان البعث واضحة، ولكن الذين ينكرونها لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون الدليل، لأنهم متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادئ الخواطر التي تبدو لهم، فيتخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها، فلما جرَوْا على حالة انتقاء العلم نُزِّلوا منزلة من لا علم لهم، فلذلك نُزِّل فعل يعلمون منزلة اللازم، ولم يُذْكَر له مفعول.

فالمراد بأكثر الناس هم الذين يجادلون في آيات البعث وهم المشركون، وأما الذين عَلِموا ذلك فهم المؤمنون، وهم أقل

منهم عددًا». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات:٢٧-٢٩].

الجهل بحكمة
خلق السموات والأرض

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ إلا حجة عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يَخْلق ذلك عبثًا ولعبًا». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٣].

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ

حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:٧١-٧٣].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد، الداعيك إلى عبادة الأوثان: أُمِرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر». اهـ.

فالغاية من خلق الخلق: أن يُعبد سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

لا كما يظن الكفرة الجاهلون! قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

وقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢].

فالله سبحانه خلق السموات والأرض، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، ليَعلم الخلقُ أنه الإله العظيم، العليم الخبير، فيعبدوه ويتقوه، ويخافوا ما أعده للعصاة من عذاب النار، كما قال الموفقون، الذاكرون الله كثيرًا، المتفكرون في خلق السموات: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا

لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۞ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٣].

فتشبه أيها العاقل المتعلم المبرَّأ من الجهل بأولي الألباب أولئك، من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين والصالحين، وتأمل ما أوصلهم إليه ـ بتوفيق الله تعالى ـ ذكرهم الكثير وفكرهم المنير، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام:٩٠].

يعلمون
ظاهرًا من الحياة الدنيا

وإياك أن تعكس الأمر فتتشبه بالكفرة والضُّلّال والفساق، الذين يظنون أنهم متحضرون وعلماء، ومبصرون وعقلاء، وما هم ـ والعياذ بالله ـ إلا كالبهائم، لا هَمَّ لهم إلا الدنيا الفانية، وقضاء شهواتهم منها: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

قال ابن سعدي: «قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها

وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب! وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأُعجِبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حُرِموا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور

العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه، ويَحِلّوا بساحته.

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبُنيت عليه لأثمرت الرُّقِيّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بُنِي كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير». اهـ.

وفي «الدر المنثور»(١): «عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يعرفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الآخرة جهال.

وعن قتادة قال: يعلمون تجارتها وحِرفتها وبَيعها.

وعن عكرمة رضي الله عنه قال: معايشهم وما يصلحهم.

وعن الحسن قال: لَيَبْلُغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه! وما يحسن يصلي!». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ

---

(١) (٦/٤٨٤)، مختصرًا.

﴿ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية:٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

فهم جهلة لا علم لهم بالله ولا بكتبه ولا برسله ولا باليوم الآخر، ولا قدْر لهذه العلوم عندهم، قد اقتصروا على علوم الدنيا، لو تعلموها، وشغلتهم أموالهم وأولادهم وشهواتهم عن ذكر الله تعالى، فكانوا فاسقين ضالّين مضلين مفسدين، فليستعدوا إذًا لنتيجة ما قدموا! وليتجهزوا لعاقبة ما أسلفوا!

كل من عَبد غير الله تعالى فهو جاهل

فالكافر والمشرك وكل من لم يعبد الله وكل غافل عن ذكره تعالى وعن الدار الآخرة فهو من الجاهلين، ولا يخرجهم

من زمرة الجهلة ما داموا كذلك ما حصّلوه من علوم الدنيا، وما جمعوه من معلوماتها، ومهما ملؤوا به الحيطان من الشهادات، في الطب أو الهندسة أو الفيزياء أو الجيولوجيا أو الفلك أو غيرها.

ولو نالوا الدنيا كلها وحازوا قصَب السبق في علومها لم ينفعهم ذلك إلا إذا كانوا مؤمنين عبادًا لله طائعين، واستخدموا علومهم فيما أباحه الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٣].

وقال جل وعز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة:١٠٤].

العقلاء

لا يعبدون إلا الله تعالى

أما العقلاء العالمون فلا يعبدون إلا الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩].

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٢١].

العقلاء أهل ذكر وفكر وعبادة وخشية

فالعقلاء العلماء عكس الحمقى الجهلاء، فهم أهل ذكر لله تعالى وادّكار، وأهل فكر واعتبار، وأهل عبادة ودعاء وصلاة وقيام، وأهل خوف من ربهم تبارك اسمه ورجاء، يتبعون ما أنزل من الكتاب، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وقال سبحانه في أهل العلم والمعرفة: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۞ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وقال سبحانه وتعالى في حق الجن: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ

﴿يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠]. الآيات.

وقال سبحانه حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن:١-٢].

ورُوي عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال:

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»[(١)].

وقيل: هو من كلام الحسن البصري رحمه الله.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال:

«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»[(٢)].

فالعقلاء الأكياس دون الجهلاء هم الذين يعملون لآخرتهم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وغيره، وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣/٣٧٣).

ومستقبلهم وقربهم من الله تعالى، ولا يفوِّتون على أنفسهم النعيم المقيم في جنات النعيم، ولا يتركون أنفسهم تقع فيما يوجب لهم الحرمان والخسار والعذاب والنار، والعياذ بالله تعالى.

الإعراض عن الجاهلين

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال عز وجل: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

قال ابن عاشور: «والمشي الهَوْن: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم. وهذا الهون ناشىء عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية».

قال: «وقَرَن وَصْفَهم بالتواضع في سمتهم (وهو المشي على الأرض هونًا) بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول، وهو

متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم، وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون؛ إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم، فعَلَّمهم اللهُ متاركَةَ السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام». اهـ.

وقال تعالى عن علماء أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

قال ابن سعدي: «﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ ﴾، من جاهل خاطبهم به قالوا مقالة عباد الرحمن أولي الألباب، ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾؛ أي: كلٌّ سيجازَى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه، ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾، من كل وجه».

كل معصية جهالة

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٧].

قال ابن القيم(١): «والجهالة هاهنا جهالة العَمْد، وإن كان عالمًا بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِي اللهُ به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل».

وقال تعالى حاكيًا عن الصدّيق يوسف عليه السلام:

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٩٤).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣].

وقال أيضًا: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف:٨٩].

وقال عز وجل: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧].

وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقال تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ

ﭐلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [الفتح:٢٦].

قال ابن سعدي: «يقول تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾، حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنِفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقريش. وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي». اهـ.

وعن المَعرور بن سُوَيْدٍ قال: لقِيت أبا ذر بالرَّبَذَةِ ، وعليه حُلّة، وعلى غلامه حُلّة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابَبْتُ رجلًا فعَيَّرْتُهُ بأُمّه، فقال لي النبي ﷺ:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ(١)، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا

(١) الخول: حشم الرجل وأتباعه، وأحدهم خائل. وقد يكون واحدًا، ويقع على العبد والأمة، وهو مأخوذ من التخويل: التمليك. وقيل من الرعاية. «نهاية». يعني بالتمليك مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ ﴾ [الأنعام:٩٤]. الآية.

تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»[1].

قال البخاري في «صحيحه»: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ... لقول النبي ﷺ: إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكَسَعَ[2] رجلٌ من المهاجرين، رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لَلْأنصار! وقال المهاجري: يا لَلْمهاجرين! فقال رسول الله ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قالوا: يا رسول الله، كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين، رجلًا من الأنصار، فقال: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». الحديث[3].

قال ابن القيم[4]: «ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه».

إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) الكَسْع: هو ضرب الدُبُر باليد أو بالرجل.

(٣) متفق عليه.

(٤) «مدارج السالكين» (٣٥١/٢).

قال شيخ الإسلام[(١)]: «والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم».

وقال[(٢)]: «وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه».

وقال[(٣)]: «كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلًا لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص.

ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا.

وذلك لأن تصور المخوِّف يوجب الهرب منه، وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورًا تامًّا، ولكن قد يتصور الخبر عنه،

---

(١) «الإيمان» (ص ٢٠).

(٢) «الإيمان» (ص ٢١).

(٣) «الإيمان» (ص ٢٢).

وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبَر عنه، وكذلك إذا لم يكن المتصوَّر محبوبًا له ولا مكروهًا، فإن الإنسان يصدِّق بما هو مخوِّف على غيره ومحبوب لغيره، ولا يورثه ذلك هربًا ولا طلبًا، وكذلك إذا أُخبر بما هو محبوب له ومكروه، ولم يكذب المخبِر بل عرف صدقه، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب».

قال الغزالي[(١)]: «العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته، وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته، ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته، فصار العلم يثمر الطاعة كلها، ويحجز عن المعصية كلها، بتوفيق الله تعالى».

الحكم بغير ما أنزل الله

ومن أعظم الجهل: الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل، واستبدال زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، بشرع الإله العليم الحكيم، زعمًا منهم أن الدنيا تطورت، والعلم تقدم، والشرع قَدُم، والإسلام انتهى دَوره! فجمعوا بأقوالهم هذه ونحوها أنواعًا من الضلال، كل نوع منها يتضمن كفرًا بذي الجلال والكبرياء،

---

(١) «منهاج العابدين» (ص ٧٤).

وظلمًا وفسقًا وتنقيصًا للشريعة الغراء.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

وقال سبحانه حاكيًا عن يوسف الصدّيق يخاطب صاحبي السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

وكأن هؤلاء الذين يحكّمون غير شرع الله تعالى، ويدعون عدم صلاحيته لغير زمانه، كأنهم من جهلهم يقولون: إن الله

لا يعلم ما سيكون في مستقبل الأزمان، أو يقولون: إن الله يعلم ونحن نعلم!!

والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦ و٢٣٢، وآل عمران:٦٦، ، والنور:١٩]. ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

وقال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٣٨].

وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون!

وجعل بعلمه وقدرته لعباده شرائع تهديهم، وسننًا تحكمهم، وجعل هذه السنن على أفضل وجه وأكمله وأتمه وأرحمه، فهو أرحم الراحمين، وأرحم بعباده من أنفسهم لأنفسهم، وأرحم بهم من والديهم ومعلميهم، ومَنْ يَسُنُّون لهم قوانين يضاهون بها أحكام ربهم، ويَحكمونهم بها، وهم في الأصل جهله، خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل الله لهم السمع والأبصار والأفئدة، فبَدَل أن يشكروه عز وجل كفَروه وعدلوا عن عهده

ووصيته وفطرته، وسعَوْا بأيديهم وأرجلهم نحو شقائهم وضلالهم.

فأرسل إليهم الرسل تذكِّرهم بما فطرهم عليه من عبادته، وبما أمرهم به على لسان أنبيائه ورسله، وتأخذ بأيدهم إلى ما فيه سعادتهم ونجاتهم.

قال سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ». ثم خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]. إلى آخر الآية(١).

وقال سبحانه فيما يرويه عنه نبيه ﷺ: «وَإِنِّي خَلَقْتُ

(١) أخرجه ابن حبان (١٧٤١ - موارد، ولعله في مواضع أخرى)، وغيره. وقال الألباني: «حسن صحيح».

عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». الحديث[(١)].

دين الله وأحكامه رحمة

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٧-١٠٩].

فما أرسل اللهُ رسولَه ﷺ إلا رحمة للعالمين، فإذا هم فريقان يختصمون: فريق قبل هذه الرحمة، وأذعن لله بالعبودية، وأطاعه فيما أمر، وقبل شرعه، وسلَّم لحكمه، فسَعِد وفاز وربح، وفريق أبى واستكبر وكذب وتولى، فشقِي وخاب وخسر.

وقال عز وجل عن كتابه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢].

وافتتحه بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة:١-٣].

فالله عز وجل رحمن رحيم، ورسوله رحمة، وكتابه رحمة، ودينه رحمة، ولكن! لمن قبل هذه الرحمة، ورفع بها رأسًا، وإلا كانت في حقه شقاءً وخسارًا وعذابًا، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

ومن أعظم الرحمة التي أرسل الله بها رسوله ﷺ: الجهاد، الذي نشر الله به الدين، وحارب المعاندين، الذين يقطعون طريق الرحمة والسعادة على السائرين، وساق طائفة منهم بالسلاسل إلى الرحمة!

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]

ومن أعظم الرحمة: القِصاص وإقامة الحدود، فبقتل القاتل يحيا الآخرون، وبالأخذ الى يد السارق والزاني وقاطع

الطريق وغيرهم تُدْرَأ الشرور.

قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩].

قال ابن سعدي: «بيّن تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: {﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾؛ أي: تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عَرف أنه مقتول إذا قَتَل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئِي القاتلُ مقتولًا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونَكّر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يَعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يُعمِلوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحِكَم والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن مَنْ كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب

الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة، والحكم البديعة، والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظِّم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين». اهـ.

قلت: فإذا كان الجهاد رحمة، والقصاص رحمة، وإقامة حدود الله رحمة، وهي محل تشكيك الجاهلين! فما بالك بغيرها؟!! فهل من معتبر؟!!!

ooooo

عظمة الله تعالى

انظر وتدبر ماذا سبق وماذا تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾، من ذكر عظمة الله تعالى، لتتيقن أن جهلهم بذلك هو الذي يمنعهم من عبادة الله تعالى، وهو الذي يصدهم عن الهدى[1]: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد (أو: يا أبا القاسم)، إِنَّ اللهَ تَعَالَى

(١) الجهل بمعنى عدم العلم والمعرفة، والجهل بمعنى الحمق وقلة العقل والغفلة وعدم الانتفاع بالعلم، وهذا الجهل غالبًا ما يصحبه الكبر والعناد.

يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ».

فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذاتَ يومٍ على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، يُقْبِل بها ويُدْبِر:

«يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ».

فرَجَفَ برسول الله ﷺ المِنْبَرُ حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أحمد (٥٥١٤ و٥٦٠٨)، وصحح إسناده على شرط مسلم الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (٣١٩٦)، واللفظ الثاني لمسلم (٢٧٨٨). والحديث في «صحيح البخاري» (٧٤١٢)، مختصرًا.

وفي لفظ: قال رسول الله ﷺ:

«يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وقال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال رسوله ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»(١).

وقال ﷺ: «رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «العرش» (رقم ٥٨). وهو في «الصحيحة» (١٠٩).

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ * مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٧-٢٨].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1]. فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلامًا، وجُعل البحر مدادًا، ومَدَّه سبعةُ أبحر معه، فكُتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا.

وإنما ذُكِرَتِ «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يُرد الحصر،

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

ولا أن ثَمّ سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدَّق ولا تكذَّب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾. فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثۡلِهِۦ﴾ آخَرُ فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هَلُمّ جَرًّا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

وقال الحسن البصري: لو جُعل شجر الأرض أقلامًا، وجُعل البحر مدادًا، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام.

وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد. فقال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ﴾؛ أي: لو كان شجر الأرض أقلامًا، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وقال الربيع بن أنس: إن مَثَل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ﴾. الآية. يقول: لو كان البحر مدادًا لكلمات الله

والأشجار كلها أقلامًا، لانكسرت الأقلام، وفَنِي ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء، لأن أحدًا لا يستطيع أن يَقْدُر قَدْره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف، ولا مُعَقِّب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾، في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه.

وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: ما خَلْق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خَلْق نفس واحدة، الجميع هين عليه، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]؛ أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك

قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾». اهـ

وانظر إلى عظمة بعض مخلوقات الله تعالى، مما هو في محيطك، وتشاهده في كل يوم، فالشمس مثلًا ـ هذا القرص الذي يبدو لبعده بحجم الرغيف ـ، قال العلماء: يبعد عنا ١٥٦ مليون كيلومتر، وهي أكبر من الأرض بمليون و٣٠٠,٠٠٠ مرة[1]، ولسان اللهب الذي يخرج من الشمس يزيد طوله على مليون كيلومتر، ودرجة حرارة سطحها ٥,٥٠٠ درجة مئوية، ودرجة حرارة مركز نواتها ١٥ مليون درجة مئوية، وإن الأرض إذا ألقيت في الشمس تبخرت في ثانية واحدة، هذا، وهي والقمر يلقيان في جهنم يوم القيامة، فكم تكون حرارة جهنم إذًا؟!!

(١) هذه الأرقام وما بعدها فيها اختلاف، والعهدة فيها على المنقول عن علماء هذا الشأن، وهو قابل للأخذ والرد، والقبول والجحد! إلا أنه مهما كانت الأرقام الحقيقية دون ما ذكرنا، فإنها تبقى هائلة جدًّا، وفوق تصور العقل واستيعابه، بل وإن الاكتشافات كلما تطورت وتجددت تخبرنا غالبًا بأن الأرقام والأعداد والمسافات والأحجام والأوصاف فوق ما ذُكِر وأعظم بكثير.

وقالوا: إن في برج العقرب نجمًا متألقًا يُرى من الأرض، اسمه قلب العقرب، هذا النجم المتألق الذي يقع في الوسط الهندسي لبرج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما!!

والمسافة بيننا وبين الشمس تقدر لبعدها بسرعة الضوء، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر، يعني المسافة بيننا وبين الشمس (وهو ما يحتاجه الضوء لقطعها) تساوي بعد التحويل حوالي ٨ دقائق و١٧ ثانية ضوئية، ويقدر بعد أبعد نجم من المجموعة الشمسية عن الأرض بـ ١٣ ساعة ضوئية، وهي لا شيء بالنسبة إلى المسافة الهائلة بين الأرض وبين أقرب نجم من غير المجموعة الشمسية، وهو نجم القطب، فبعده عن الأرض ٤٠٠ سنة ضوئية، وبين الأرض وبين أقصى نجم في درب التبانة[١] ١٥٠,٠٠٠ سنة ضوئية.

(١) درب التبانة: هو اسم مجرتنا التي تنتمي إليها المجموعة الشمسية. والمجرة: عبارة عن تجمعات هائلة الحجم، تحتوي على مليارات النجوم والكواكب والأقمار والكويكبات والنيازك، وتحتوي كذلك على الغبار الكوني، والمادة المظلمة، وبقايا النجوم، وتتخللها مجالات مغناطيسية مروِّعة.

هذا، وبعض المجرات تبعد عنا ١٨,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وكل هذا وغيره وما بعده من السموات السبع وما فيها، وما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، ما هو إلا كحلقة في أرض فلاة بالنسبة إلى الكرسي، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك!!![١].

وقالوا عن ما يسمى عنقود لانياكيا (Laniakea)[٢]: هو عنقود مجري فائق يعتبر موطن مجرة درب التبانة، وحوالي ١٠٠,٠٠٠ مجرة أخرى مجاورة لها، تم تعريفه في أيلول عام ٢٠١٤، عندما قام فريق بتخطيط حركة المجرات لدراسة حقل الجاذبية، بهدف إعادة رسم خريطة الكون، ويبلغ نصف قطر هذا العنقود ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، ويبعد عن الأرض نحو ٢٥١,١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية!!!

وقالوا: هناك ١٠ ملايين عنقود مثل عنقود لانياكيا، بل أكثر من ذلك!!!

---

(١) وتابع الكلام في هذا الموضوع ـ إن شئت ـ في فصل مُسْتَطْرَدٍ في كتابي «معاتبة النفس»، بعنوان: «عظمة الله تعالى».

(٢) ويعنون بهذه اللفظة في لغة هاواي: السماء الفسيحة أو اللامحدودة.

جحد الحق

ثم انظر بعد هذا كله وتعجب من هؤلاء المسمَّين علماء فلك، وغيرهم من علماء الطب والجيولوجيا وغيرها! كيف على كثرتهم أفنَوا الأعمار في البحث في خلق الكون والإنسان والحيوان والنبات، وكيف تحيروا دهرهم، واندهشوا عمرهم، في عجيب صنع ذلك! وما جهلوه بعد أكثر وأعظم مما عرفوه! انظر إليهم وتعجب! كيف لا يزالون بعد كل ما عرفوه من عظمة المخلوقات، الدالة ـ ولا بد ـ على الخالق العظيم، كيف لا يزالون على عنادهم وكفرهم! وكيف لا يزالون يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ويجادلون في الحق بالباطل! وكيف تنصرف عقولهم عن الهدى الواضح الأبلج، إلى الضلال المظلم اللجلج! كما قال الله تعالى في وصف أمثالهم وأشباههم في الكفر والعناد: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر:٦٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤١-٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]. الآيات.

فانظر إلى جدالهم وعنادهم وجحدهم وكفرهم! لينبئك هذا كله بشأن تزكية النفس وأهمية علاجها من أمراضها، التي هي سبب ضلالها وكفرها ومعصيتها وهلاكها، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤].

فكما تحرص على علاج نفسك من الجهل بالعلم والمعرفة، احرص على علاجها وتطهيرها من الظلم والكبر والعناد والحسد، بالعدل والإنصاف وقبول الحق والتواضع له والرضا به، وإلا فإن العلم والمعرفة لن تنفع دون ذلك، فها هم قد جحدوا بعد اليقين، وعاندوا بعد العلم، وأنكروا بعد المعرفة، ظلمًا من أنفسهم وعلوًّا، كما يفعل أكثر هؤلاء العلماء والمكتشفين الجُدد تمامًا!! فهم في هذا في حكم الجاهلين!

قال شيخ الإسلام(١): «فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩١/٧).

غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم، وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرَوْن في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم، فيكونون من أكفر الناس، كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق».

الكبر

واعلم أن أعظم أسباب العناد والمجادلة في الحق ورفض التواضع له هو الكبر، كما قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ * لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٦-٥٧].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، يقول: بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوّة». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الحج:٨-١٠].

قوله تبارك وتعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه استكبارًا وإعراضًا.

وقال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ

بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة! قال:

«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ(١)، وَغَمْطُ النَّاسِ(٢)»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»(٤).

وعن أبي هريرة وحده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ

---

(١) هو دفعه ورده. «منذري».

(٢) هو احتقارهم وازدراؤهم. «منذري».

(٣) أخرجه مسلم (٩١) وغيره.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) وغيره.

نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[1].

فالمقصود: أنه لا شيء مثل معرفة عظمة الله تعالى، واستشعار القلب بها، يوجب خضوعه لله تعالى وعبادته والتوبة إليه، والائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه.

فلو وصلت هذه المعرفة إلى قلوب هؤلاء الجهلة، وتخلَّوا عن عنادهم، وتنازلوا عن كبريائهم، لأيقنوا أنهم ومن يعبدون، من الملائكة والإنس والجن وغيرهم، لا يسعهم إلا أن يكونوا عبيدًا للإله الحق العلي العظيم، فكيف لو عرفوا أن من يعبدونهم من الملائكة والأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، كلهم يتسابقون في عبادة الله تعالى، ويسعَوْن في مرضاته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء:٥٧].

OOOOO

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠) وغيره، وصححه الألباني.

خاتمة

واعلم أن طريق تعظيم الله عز وجل يكون:

أولًا: بمعرفة أسمائه وصفاته، وعظمتها وسعتها، وما تُطْلِعُك عليه من جلال الله تعالى وجماله، وعظمته وكماله، وعلو ذاته وشانه، وذلك عن طريق تدبر وذِكر ما ورد في ذلك في الكتاب والسنة، وهي الأدلة المكتوبة المسطورة.

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

فمعرفة الله تعالى بربوبيته للسموات والأرض وما بينهما، ومعرفة أسمائه الحسنى، وما تضمنته من صفات عُليا، وتفرده سبحانه في ذلك، يوجب عبادته وشدة الصبر والثبات عليها، والذل له والحب والتعظيم، وبذل الجهد في مراضيه ومحابِّه، وأدائها على أحسن وجه وأكمله.، وهذه هي العبودية الكاملة.

وثانيًا: بمعرفة عظمة مخلوقاته، وذلك عن طريق النظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، والتفكر في عجيب صنعها وتدبيرها، وكيف خُلِقَتْ؟! وهي الأدلة

المنظورة المنشورة.

فهذان طريقا أولي الألباب في معرفة رب الأرباب، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وبالله التوفيق.

كتبه

محمد شومان الرملي

١٤٤٣هـ

الفهرس

تم بحمد الله